الفصل الثالث

الحضارة الهلينستية

بعد ضعف الحضارة المصريَّة واضمحلالها بسبب الفتن الداخليَّة والتدخلات الخارجيَّة انتقلت شعلة الحضارة المصريَّة إلى الإغريق الذين أنشئوا حضارتهم كما نشأت الحضارة المصرية القديمة حضارتها على العلم والإيمان ، ولا عجب فقد كان جميع صانعى الحضارة الإغريقيَّة ، قد جاءوا إلى مصر واعتنقوا عقيدة التوحيد المصريَّة قبل أن ينهلوا من علومها المقدَّسة ، فقد كان كهنة جامعة " أون " أقدم جامعة في التاريخ يشترطون إيمان المتعلم بعقيدة التوحيد حتى يتاح له الالتحاق بهذه الجامعة والاغتراف من علومها .

فتح الإسكندر مصر

وشاءت حكمة الله تعالى أن ينقذ مصر من براثن الفرس الذين دمَّروا حضارتها ونهبوا ثرواتها وحاربوا عقيدتها بأن يرسل إليها الإسكندر الأكبر فاتحاً ، والإسكندر الأكبر تلميذ " أرسطو " أكبر فلاسفة الإغريق الذي قام برحلات إلى مصر وزار معابدها وتتلمذ على يد كهنتها وتأثَّر بالعقيدة المصريَّة واعتنقها ونادى بعبادة " أمون رع " (رب الأرباب الذي لا تدركه الأبصار) وتابع تعاليمه .

وحدث أن عهد الملك فيليب المقدوني إلى أرسطو تعليم ابنه الإسكندر وتربيته ، ولقد تأثَّر الإسكندر بما كان يسمعه من معلمه ؛ لذا فقد وضع في برنامج فتوحاته المشهورة زيارة مصر وتقديم الولاء إلى الإله " آمون " (الذي لا تدركه الأبصار)[1]

([1]) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٩٥ .

سار الإسكندر نحو مصر ، وكانت إذ ذاك تحت حكم الفرس ، ودخل مصر في خريف عام ٣٣٢ ق.م ، ولم يجد صعوبة في دخولها ؛ إذ كان المصريون يرون فيه حليفاً لهم في ثورتهم وقتالهم ضد الفرس لا محتلاً غازيّاً كالفرس ؛ لذا استقبلوه استقبال الصديق ، مما جعل الوالي الفارسي يستسلم بدون مقاومة .

وصل الإسكندر إلى منف ، حيث أظهر ولاءه للديانة المصريَّة فقدَّم القرابين في معبد الإله بتاح (اسم الله الخالق) ... ورسم نفسه فرعوناً في معبد بتاح طبقاً للطقوس المصريَّة .. وأبى الإسكندر إلا أن يدمج نفسه في الديانة المصريَّة وكان آمون (الذي لا تدركه الأبصار) في سيوة يعتبر إلهاً عالميّاً يحجُّ إليه أبناء العالم القديم كله ويعرفه الإغريق ليسألوه بصفة خاصة عن حاجاتهم .

فاخترق الصحراء من الإسكندرية حيث وصل إلى معبد آمون في واحة سيوة في رحلة شاقة مليئة بالأخطار واعتبر وصوله في خاتمة المطاف إحدى المعجزات ومظهر حفظ الآلهة له .. وفي معبد آمون نودي بالإسكندر ابناً لآمون .. مؤكداً بذلك قصة أمه أوليماس من أنه ابن زيوس إله اليونان .

وقد حرص الإسكندر ما عاش بعد ذلك على أن يحمل اسم ابن آمون وقضى بأن تزين صورته على النقود التي سكَّها بقرني المقدس آمون ، ولعل ذلك مصدر تسميته " بذي القرنين " .[1]

وهناك كثير من العملات الموجودة في مصر وغيرها من البلاد التي نقشت عليها صورة الإسكندر وجميعها تصوره بقرنين .

ولا ينبغي أن تفزعنا عبارة الإسكندر ابن آمون ، أو ابن إله اليونان فإن هذه العبارة لا تعني معناها الحرفي بل المقصود بها التشريف وكان هذا الأمر شائعاً عند أهل الكتاب . وهي تعني في شريعتهم أنبياء الله ورسله ، وكثيرة هي النصوص في التوراة التي تطلق على الأنبياء والصالحين أبناء الله .

([1]) أحمد حسين " موسوعة تاريخ مصر " ج١ ص ١٧٨ مرجع سابق .

الإسكندر الأكبر وسر التمكين في الأرض

يبيِّن الله تعالى بجلاء ووضوح لا يقبلان الشك ولا الجدال سر قوة وتمكين ذي القرنين (الإسكندر الأكبر) في الأرض وهو أخذه في أسباب العلم الإلهي الذي أعطاه له الله تعالى ليبني به الحضارة .

{ وآتيناه من كل شيء سببا } قال ابن عباس: يعني علماً (وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسُّدي وقتادة والضحّاك وغيرهم) .

لقد أعطى الله تعالى ذا القرنين العلم المقدس – كما أعطى إدريس من قبل – فأخذ في أسبابه وبالعلم والإيمان ملك ذو القرنين الأرض .

ويؤكد القرآن أخذ ذي القرنين بأسباب العلم ثلاث مرات {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} [الكهف : ٨٥] { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا } [الكهف : ٨٩] { ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا } [الكهف : ٩٢]

إذن التمكين في الأرض لا يكون إلا بالأخذ في أسباب العلم الإلهي الذي يستنبط السنن الكونية ولا يجور عليها ، ذلك العلم الذي يبني ولا يهدم ، يُصنِّع ولا يلوث الكون .

فإذا أراد الإنسان الجمع بين سعادة الدارين فعليه أن يضيف إلى إصلاح الدنيا صحة الإيمان بالله بل عليه أولا أن يؤمن بالله تعالى ويؤدي ما فترضه عليه وينتهي عما نهاه عنه ثم يترجم هذا الإيمان بالعمل الصالح في الدنيا فإن فعل ذلك فقد استحق وعد الله بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين له وإبداله من بعد خوفه أمنا

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }
[النور : ٥٥]

فالعلم والإيمان هما أساس أي حضارة تحققت على ظهر هذه الأرض بدءاً من الحضارة المصريَّة القديمة " فالإيمان والعلم كانا أساس حضارة مصر الخالدة في مختلف عصورها الذهبيَّة ، والتخلِّي عنهما كان السبب المباشر في انحلال الحضارة وانطفاء شعلتها وترديها في عهود الاضمحلال " [1]

([1]) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٢٢

وهؤلاء اليونانيون خالدو الذكر: هوميروس ، وسولون ، هيكاته ، وهيلانيكوس، وطاليس ، وفيثاغورس ، وإينوبيدس ، وأناكسمندر ، أناكساجوراس ، وسقراط ، وأفلاطون ، وأويكسودس ، وديوجين ، وأرسطو ، والإسكندر الأكبر ...

هؤلاء العظماء الذين بنوا الحضارة الإغريقيَّة هذه الحضارة التي هي بمثابة الحضارة الأمّ بالنسبة لأوربا ، والتي ظلَّت نحو عشرين قرناً هي السائدة في أوربا وفي أمناطق كثيرة في العالم . كنت أقول هؤلاء العلماء جميعاً تعلَّموا في مصر واعتنقوا الديانة المصريَّة ، والملفت للنظر عند دراسة تاريخ حياة كل واحد منهم نجد أن معظمهم ذهب إلى مصر ليدرس ناحية معينة من نواحي المعرفة سواء في الفلك أو الرياضيات أو الطب أو العقيدة وعاد إلى بلاده بعلمه الغزير الذي خلَّد به نفسه وبلاده بتخصص آخر مخالف تماماً لما حضر لدراسته بعد اتصاله بمعاهد مصر ومعابدها واقتناعه بسطحيَّة ما جاء به من معارف بلاده . (١)

الأخطاء الشائعة حول الحضارة الإغريقيَّة

ومن الأخطاء الشائعة في عصرنا ما روي عن الحضارة الإغريقيَّة من أنها أمُّ الحضارات الغربيَّة وأنَّها لم تكن في حاجة إلى غيرها من المَدَنيَّات التي سبقتها ، وأنها هي أصل كل الحضارات التي تلتها في جميع ميادين العلم والفنون والآداب والفلسفة .

إن هذه الفكرة كما وصفها الدكتور سليم حسن – عالم المصريات الكبير – في موسوعة مصر القديمة خاطئة من أساسها . فبلاد الإغريق كغيرها من البلاد الأخرى كانت من حيث أصول الفلسفة بوجه خاص والبحث العلمي بصفة عامَّة مَدِينة لمصر بدرجة عظيمة يظهر ذلك واضحاً من تاريخ نشأة الحضارة الإغريقيَّة ومراحل تطورها وارتباطها الزمني بمصر .

فالحضارة الإغريقيَّة لم تر النور إلا في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد عندما كانت الحضارة المصريَّة تمر خلال إحدى عصور إمبراطوريتها الذهبيَّة والتي وصلت

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع العودة إلى الكتب الآتية : لغز الحضارة المصرية . د.سيد كريم ، والماضي الحي د. إيفار ليستر، ومقالات د. وسيم السيسي على موقعه الالكتروني .

فيه فتوحاتها إلى أطراف آسيا وشواطئ جنوب أوربا والبحر الأسود وجزر البحر المتاخمة لبلاد الإغريق .

لقد دلَّت البحوث العلميَّة الحديثة وكشوفها الأثريَّة على أن الشعب الإغريقي قد اتخذ كل مبادئ علومه ومعارفه عن مصر .

ويحدد كثير من المؤرخين بدء الحضارة الإغريقية بالفعل بين عامي ٧٥٠ ، ٦٥٠ ق.م حيث ازدهرت الفنون والآداب وارتقاء الصناعات واصطباغها بصبغة جديدة مبتكرة بعد تعلمهم من الكريتيين – نسبة لجزيرة كريت – والحضارة الكريتيَّة يرجع تاريخها إلى ٢٠٠٠ ق.م وقد أخذت جميع أصولها وفنونها وتشريعاتها من مصر حيث ارتبطت بمصر ارتباطاً وثيقاً وبلغت أوج ازدهارها من ١٦٠٠ق.م إلى ١٥٠٠ق.م أي في عهد الأسرة الثامنة عشرة المصريَّة وفي عهد تحتمس الأول والملكة حتشبسوت بالذات .

وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد خضع الكريتيون للسيادة المصريَّة وقد أخذ الكريتيون أشياء كثيرة من الحضارة المصريَّة التي تمثلت في الحرف وصناعة الأثاث وآنيتهم تشبه الآنية المصريَّة وكتابتهم مأخوذة من الرموز الهيروغليفيَّة وأصبحت لهم علاقة كبيرة بمصر .

ولقد كانت نهاية الحضارة الكريت على يد الإغريق فدمَّروا مدينة كنوسس وحرقوا قصرها العظيم ، ولم تقم للجزيرة وحضارتها قائمة بعد ذلك . فالإغريق هم الذين محو حضارة كريت . (١)

ونحن إذ نقول إن الفضل لمصر في حضارة الإغريق لا ننكر على علمائها جهودهم العظيمة في فهم واستيعاب ما تعلموه في مصر وفي العمل على تطبيقه والاستفادة منه حتى صاروا إلى ما صاروا إليه ، إنما نقول ذلك :

أولاً : لنردَّ على الأجانب الذين نفوا صلة الحضارة الإغريقيَّة بالحضارة المصريَّة، وتتلمذ علمائها جميعاً على يد علماء مصر أو على يد من تعلم في مصر من الإغريق .

---

(١) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٨٨

ثانياً : لنردَّ على المتبجِّحين الذين يقلبون الحقائق ويزورون التاريخ ، يقولون منكراً من القول وزوراً أن الحضارة الإغريقيَّة هي أقدم حضارة في التاريخ وعنها نقلت جميع الحضارات الأخرى ومنها الحضارة المصريَّة !!!

ثالثاً : للردِّ على من زعم أن الفضل في قيام الحضارة الإسلاميَّة إنما يعود إلى الإغريق حيث ترجم العرب كتبهم وبنوا عليها حضارتهم ، والحقيقة إن الإغريق والصين والهند وغير ذلك من الأمم والممالك ممن استفاد المسلمون بعلومهم ليس لهم فضل إلا رد الأمانة إلى أهلها – إلى جانب مجهوداتهم في الاستفادة بهذه العلوم قدر جهدهم – فهذه بضاعتنا رُدَّت إلينا .

رابعاً : لنبيِّن للمسلمين أننا أولى بهذه العلوم من الغرب ، وما علينا إلا الأخذ في أسباب العلوم النافعة مع تقوية الصلة بالله تعالى حتى نعيد مجدنا القديم .

الحضارة الهلينستية (المصريَّة / البطلميَّة)

عندما فتح الإسكندر مصر ولمس ترحيب المصريين بمقدمه ورضاهم بحكمه فكَّر الإسكندر في تكوين حضارة جديدة تجمع بين مزايا الحضارات الشرقيَّة العريضة والحضارة الإغريقيَّة الناشئة ؛ ولتحقيق ذلك عمل على فتح أبواب الشرق على مصراعيها أمام الإغريق للإقامة بها كما أقام بعض المدن الجديدة كالإسكندريَّة في مصر وغيرها لتصبح مراكزاً لنموِّ تلك الحضارة الجديدة ولتعمل على نشرها في كل مكان ، وقد سميت هذه الحضارة الجديدة باسم الحضارة " الهلينستيَّة " .

وقد ازدهرت الحضارة الهلينستية (المصريَّة / البطلميَّة) في مصر إذ وجد الإغريق في مصر تربة خصبة للنموِّ على نحو لم تشهده في بلاد الإغريق نفسها ، كما أنهم أفادوا من حضارة المصريَّة العريقة حيث وجدوا فيها أنظمة راسخة وثروة بشريَّة وماديَّة عظيمة فضلاً عن موقعها الفريد وسط العالم المتمدِّن في ذلك الوقت ، فكانت مصر بذلك بمثابة المصنع ومواد التصنيع والصنَّاع لهذه الحضارة الجديدة واقتصر دور البطالمة على الأشراف عليها وتنظيم إدارتها وتطعيمها ببعض الخبرات الإغريقيَّة ، وأصبحت مدينة الإسكندريَّة النموذج الأمثل لها . ومنها أشَعَّت تلك الحضارة على باقي أجزاء العالم ، وفيها احتفظ أجدادنا بعناصرها مئات السنين.

ولم يعش الإسكندر طويلاً ليحقِّق آماله بالإشراف على بناء تلك الحضارة وترك لخلفائه في مصر تحقيق ذلك الأمل ، ويتفق المؤرِّخون على أن العصر الهلينستي يبدأ بموت الأسكندر الأكبر ٣٢٣ ق.م وينتهي باستيلاء روما على مصر ٣٠ ق.م

ولا عجب أن يتعاون المصريون مع البطالمة أو أن يعملوا تحت إشرافهم ؛ فقد كانوا لا يعتبرونهم غزاة محتلِّين إنما اعتبروهم ، كما سيعتبرون المسلمين العرب بعد ذلك ، فاتحين صالحين لذا تعاونوا معهم على طرد المحتلِّين الفرس وساهموا بحبٍّ وإخلاص معهم في بناء حضارة جديدة تعدُّ امتداداً طبيعيّاً لحضارتهم القديمة .

وعمل البطالمة على التقرُّب من المصريين فاحتفظوا بمعظم نواحي التنظيم الإداري التي خلَّفها لهم المصريون القدماء مع إدخال تعديلات طفيفة اقتضتها الظروف ، ولم يحاولوا التدخل في شئون المصريين المَدَنيَّة أو عاداتهم أو تقاليدهم أو طرق حياتهم حرصاً منهم على كسب مودَّتهم وقد احتفظ المصريون كعادتهم بما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من مظاهر الحضارة المصريَّة القديمة ولم تكن للحضارة الإغريقيَّة من سبيل إليها إلا فيما ندر .

كما تبع الإسكندر والبطالمة من بعده سياسة تجاه الحضارة المصريَّة بوجه عام والديانة المصريَّة بوجه خاص تنطوي على الاحترام الكامل فتسابقوا على حمل الألقاب الملكيَّة القديمة ومثلوا أنفسهم في المناسبات الرسميَّة مرتدين زي الفراعنة[1]

مظاهر الحضارة الهلينستية (المصريَّة / البطلمية)

حلَّقت الحضارة الهلينستيَّة (المصريَّة / البطلميَّة) بجناحيها : المعنوي ، والمادي في آفاق التقدم والرقيِّ متأسِّية بالحضارة المصريَّة الأمِّ ؛ فلم تكتف بالنهضة العمرانيَّة الماديَّة وإلا صارت جسداً بلا روح مثل النهضة الغربيَّة الحديثة إنما اهتمَّت كذلك بالجانب المعنوي الديني والثقافي والمعرفي الذي لا تكون الحضارة حضارة إلا به فأنشأت المدن الجديدة ، وجدَّدت المعابد المصريَّة القديمة ، كما نهضت بالزراعة والصناعة والتجارة نهضة واسعة .

([1]) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٤ .

مدينة الإسكندريَّة

أسس الإسكندر الأكبر مدينة الإسكندريَّة قبل مغادرته مصر لتكون المركز الرئيسي للحضارة الهلينستيَّة في العالم القديم ، ولقد عهد الإسكندر إلى أحد المهندسين الإغريق بتخطيط المدينة فأتمَّه في شكل شوارع مستقيمة متقاطعة كما قُسِّمَت المدينة إلى عدَّة أحياء كان بينها الحي المَلَكِي والحي الوطني وحي الميناء ، وقد أتمَّ بطليموس الأوَّل بناء مدينة الإسكندريَّة وفقاً لتخطيط الإسكندر كما اهتمَّ ملوك البطالمة التاليين بهذه المدينة واتخذوها عاصمة لبلادهم فبنوا بها القصور والمنشآت وغرسوا الحدائق وأوصلوا إليها مياه النيل العذبة عن طريق ترعة "شيديا" .

ولقد أصبحت مدينة الإسكندريَّة منذ عهد بطليموس الثاني أعظم مدن العالم القديم مثلما كانت طيبة في عهد الدولة الحديثة الفرعونيَّة ، وقامت مدينة الإسكندريَّة بوظائف متعدِّدة إذ كانت عاصمة للبلاد ومركزاً للحكم والإدارة طوال العصر البطلمي الذي استمر قرابة ثلاثمائة عام ، كما كان لها وظيفة اقتصاديَّة إذ ازدهرت فيها العديد من الصناعات حتى أصبحت أهم مدن مصر الصناعيَّة ، كما أصبحت ملتقى التجارة الوافدة من العالم القديم ، وأكبر مركز للتبادل التجاري الخارجي وكان على رأس مهام المدينة مهمَّة ثقافية إذ أنشأت بها الجامعة المكتبة والمسرح وغيرها من المنشآت الثقافيَّة التي لعبت دوراً كبيراً في الإشعاع الثقافي في العالم القديم ، وخاصة في مجالات : الآداب ، والعلوم ، والفنون ، وأخيراً كانت لها مهمة عسكريَّة دفاعيَّة .[1]

مكتبة الإسكندريَّة

ارتبطت شهرة الإسكندريَّة الثقافيَّة والعلميَّة بدار البحث العلمي التي أقامها على الأرجح بطليموس الأول سنة ٢٩٠ ق.م ، وقد أعدَّ لها مبنى فخماً في الحي المَلَكي بالإسكندريَّة كان مركزاً للدراسات والبحث للدارسين والباحثين في نفس الوقت ، وكان العلماء يقومون بالدراسات والبحوث العلميَّة ، كما كانوا يشتغلون بتصحيح المؤلَّفات الإغريقيَّة القديمة ، لقد تفرَّغ العلماء للبحث العلمي يعاونهم في ذلك نخبة من تلاميذهم يتحاورون مع أساتذتهم العلماء في شكل ندوات وحلقات بحث .

([1]) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٢، ١٩٣ بتصرف .

مدرسة الإسكندريَّة

آخر المدارس الفلسفيَّة الإغريقيَّة الكبرى في التاريخ القديم ظهرت عقب إنشاء مدينة الإسكندريَّة فكان موقعها الجغرافي المتوسط بين الشرق والغرب ، وأحوالها التاريخيَّة التي دفعت البطالمة إلى منافسة أثينا ، سبباً في زعامتها الأدبيَّة والعلميَّة والدينيَّة والفلسفيَّة زمناً طويلاً .

عُمِرت مدرسة الإسكندريَّة تسعة قرون يمكن قسمتها إلى عهدين : عهد في حكم البطالمة (٣٠٦- ٣٠ ق.م) ، وعهد تالٍ يمتد إلى فتح العرب مصر .

وقد اتَّسم العهد الأوَّل بالأدب والعلم ، وفيه أنشئ المُتْحَف والمكتبة المشهورة ، فاجتذبا إلى الإسكندريَّة الأدباء والعلماء والفلاسفة . وفي هذا العهد نبغ أقليدس الرياضيّ ، وأَرِستار خُوس الفلكيّ ، وأرشميدس وغيرهم .

واتَّسم العهد الآخر بما غلب عليه من تعاليم دينيَّة وآراء فلسفيَّة ، في نزعة تَوْفِيقيَّة انتقائيَّة وميل إلى التصوُّف كانا أصلاً للأفلاطونيَّة الحديثة .

واقتصرت حركة حكماء الإسكندريَّة في العصر الأخير على ترتيب كتب المتقدمين وشرحها واختصارها وتبويبها وإعدادها للتعلم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات من حساب وهندسة وفَلَك . وعن هؤلاء نقل العرب الفلسفة والعلوم القديمة في عصر الترجمة ، وكان لمدرسة الإسكندريَّة شأنها في التفكير الإسلامي .([1])

لم يقتصر اهتمام الحضارة الهلينستيَّة (المصريَّة / البطلميَّة) على النواحي العلميَّة الثقافية بل امتدَّ ليشمل النواحي الاقتصاديَّة ، فقد سعت إلى تنمية موارد الدولة ، وقد انعكس هذا الاهتمام على كافة المرافق الإنتاجيَّة وخاصة فيما يتعلق بالزراعة والصناعة والتجارة .

الزراعة

([1]) مجمع اللغة العربية " المعجم الكبير " ج ١ حرف الهمزة ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

كانت جميع مقومات النهضة الزراعيَّة متوفرة في مصر ؛ الأرض ، المستوية شاسعة الاتساع في الوادي والدلتا ، ذات التربة عالية الخصوبة بفضل الطمي الذي يحمله النيل إليها كل عام فيكسو وجهها ، والماء العذب الفرات الذي يفيض به النيل العظيم ، والفلاحون ذوو الكفاءة والخبرة الذين علَّموا الدنيا فنون الزراعة ، ولا ينقص النهضة الزراعيَّة إلا حسن الإدارة والعدالة وقد قامت الحضارة الهلينستيَّة بهذا خير قيام فقد حسَّنوا وسائل الري وأقاموا الجسور وحفروا القنوات ، وأدخلوا أدوات زراعيَّة جديدة كالساقية والطنبور فسارع الفلاحون إلى الإفادة منهما إلى جانب الشادوف المصري ؛ فزاد الإنتاج الزراعي وتنوَّعت محاصيله .

الصناعة

كما أن مصر كانت تملك مقوِّمات النهضة الزراعيَّة فإنها كذلك كانت تملك مقوِّمات النهضة الصناعيَّة من وفرة في المواد الخام الزراعيَّة ، والمعدنيَّة ، والحجريَّة بالإضافة إلى العمالة المصريَّة الماهرة أحفاد ايمحوتب ، وقد أدَّى كل هذا إلى ازدهار كثير من الصناعات مثل صناعة ورق البردي والمنسوجات الكتانيَّة والزيوت والفخار والزجاج والصناعات الخشبيَّة والجلديَّة وغيرها مما كانت تصدِّره إلى مختلف بلاد العالم القديم ، كما أنَّ ما قام به العلماء من أبحاث واختراعات بدار البحث العلمي (الجامعة) بالإسكندريَّة قد زاد من تقدُّم الصناعة ورفع من مستواها ، وكانت الإسكندريَّة في مقدمة المدن الصناعيَّة التي ازدحمت بأعداد كبيرة من العمَّال والصنَّاع ، وكان لهم نقابات تنظم أحوالهم وترعى شئونهم ، وقد قُدِّر عدد العمال الذين كانوا في مصانع الإسكندريَّة حينئذ بما لا يقل عن ٢٠٠.٠٠٠ عامل [1]

التجارة

ساعدت النهضة الزراعيَّة والصناعيَّة على رواج التجارة الخارجيَّة والتي اهتمَّت بها الحضارة الهلينستيَّة اهتماماً كبيراً وقد شجَّعها على ذلك موقع مصر الجغرافي في قلب العالم القديم وولع الإغريق بالنواحي التجاريَّة فأنشأت الموانئ على ساحل البحر المتوسط والأحمر ، وأقامت المصانع لبناء السفن ، وبَنَت المنارات لإرشادها، ونظَّمت

([1]) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٩ .

شئون الجمارك وسكَّت العملة لتسهيل التبادل التجاري ، وقد وصل التبادل التجاري إلى الهند والصين شرقاً وإلى أسبانيا غرباً وإلى أواسط أفريقيا جنوباً وإلى أوروبا شمالاً [1] .

لقد شهد العصر الهلينستي إنجازات عظيمة في الثقافة، والعلوم، والفنون. مثال ذلك، طوَّر الرياضي إقليدس أساسيات الهندسة، واكتشف المخترع أرشميدس عددًا من القوانين الأساسيَّة في الفيزياء، وطرح الفلكي أريستاركوس، من بلدة ساموس، الفكرة القائلة بأن كل الكواكب، فيما في ذلك الأرض، تدور حول الشمس. وأجرى الرياضي أيراتوستينيز حسابات، صحيحة تقريبًا، لمحيط الكرة الأرضيَّة. وأصبح التصوير التشكيلي والنحت أكثر واقعيَّة. وأبدع النحَّاتون أعمالاً نَحْتيَّة، مثل لاوكون والنسر المجنح لساموثريس .

والسؤال الآن إذا كان المصريون قد تحالفوا مع البطالمة بل تآلفوا معهم إلى حد الاندماج الحضاري والديني فلماذا ثاروا عليهم في آخر عهدهم ؟ ولماذا انهارت الحضارة الهلينستيَّة ؟

ثورات المصريين ضد البطالمة

حكم البطالمة وهم السلالة التي انحدرت من بطليموس أحد قادة الإسكندر المقربين مصر منذ ٣٣٣ حتى ٣٠ ق.م ، حيث تولَّى حكم مصر ١٥ ملكاً بطلميّاً،ويمكن تقسيم تاريخ حكم البطالمة لمصر إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأول : وهي فترة حكم البطالمة الأوائل من ٣٢٣ إلى ٢٢٢ ق.م وهي فترة رخاء وثراء وقوة ، وهي التي تمَّت فيها معظم الإنجازات الحضاريَّة .

المرحلة الثانية / وهي من ٢٢٢ إلى ١١٧ ق.م تبدأ خلالها البلاد في التخلُّف ، أو هي بداية الانهيار ، حيث انقسمت العائلة المالكة على نفسها بسبب طموحات بعضهم الزائدة ، مما أدَّى في النهاية إلى كثرة تدخل الرومان في أحوال مصر الداخلية ، وبدأ الحضارة الهلينستيَّة في هذه المرحلة في الضعف والتحلل .

([1]) د. على رضوان " مصر القديمة " مطابع الأهرام ص ١٩٩ .

المرحلة الثالثة : من ١١٧ إلى ٣٠ ق.م وهي التي وصلت البلاد في نهايتها إلى الانهيار الكامل ، وخلال هذه الفترة نجد أن بعض الحكَّام يلجئون إلى الرومان للتدخل لإبقائهم على العرش . (١)

وفي المرحلة الأخيرة من الحكم البطلمي كانت الحضارة الهلينستيَّة قد دبَّ فيها الوهن ووصلت إلى مرحلة التحلل الحضاري الذي تحدَّث عنها " تونبي " بسبب ضعف الحكام واستبدادهم ، واضطراب الأحوال الداخليَّة ، والتدخلات الخارجيَّة والحضارة لا تنمو في هذا المناخ الفاسد .

وبرغم أن المصريين اعتبروا الإسكندر رسول الله إليهم فأحبُّوه وأطاعوه ، واعتبروا البطالمة الأوائل حلفاء لا محتلين دخلاء وتعاونوا معهم بشكل فعَّال في بناء صرح الحضارة الهلينستيَّة إلا أن هذا لم يمنع المصريين من الثورة على البطالمة لما خرجوا عن شريعة ماعت ، شريعة الحق والعدل ، وظلموا واستبدُّوا .

وأخذت دولة البطالة تنهار سريعاً بعد أن وصلت ثورات المصريين عليهم إلى ست ثورات قوَّضت دعائمها ، وأنهكت قواها الغزوات الخارجيَّة المتلاحقة . فضلاً عن التدخل الروماني الذي أخذ يتزايد بصورة واضحة حتى غدا الملوك البطالمة مجرَّد أدوات في أيدي الساسة الرومان ومجلس الشيوخ الروماني .

وانتهى أمر البطالمة بتولي العرش بطليموس الثاني عشر مشتركاً مع أخته كليوباترا الشهيرة التي حاولت بكل السبل أن تعيد إلى دولة البطالمة سابق مجدها وعزها ، فباءت بالفشل ، واضطرت إلى الانتحار لتجنب نفسها مرارة الوقوع في أسر القائد الروماني . (٢)

مصر تحت الحكم البيزنطي

قضت الأحوال السياسيَّة بتقسيم المملكة الرومانيَّة إلى مملكتين شرقيَّة وعاصمتها القسطنطينيَّة وغربية وقاعدتها روميَّة . أما مصر فكانت تابعة للمملكة الشرقيَّة ولكن لم يغيِّر هذا التقسيم في حالتها شيئاً بل زاد في الطنبور نغمةً أن ملوك القسطنطينيَّة كانوا يحاولون توحيد العقائد وإزالة الخلاف بإلزام جميع الرعايا التابعين لهم بالتمسُّك

---

(1) د. ناصر الأنصاري " مجمل في تاريخ مصر " دار الشروق ص ٦٠ .
(2) د. محمد عواد حسين " كفاحنا ضد الغزاة " مكتبة النهضة المصرية . ص ١٢٤ .

بمذهب واحد وهو مذهب الروم أو بالحري التمسُّك بمذهب القوَّة الحاكمة ولذا كان الروم يُسَمَّوْن مَلِكِيين ، ولكن لم يُجْدِ هذا نفعاً ولا فائدة بل كان سبباً للنفور منهم أكثر فأكثر ليس في مصر فقط بل وفي غيرها من الولايات التابعة للمملكة الشرقيَّة ؛ ولهذا السبب كثرت القلاقل والفتن داخل البلاد وصغرت الحكومة الرومانيَّة في عيون المصريين فاستعمل الحكام والولاة العسف والقوَّة في تنفيذ أوامرهم وأغراضهم فكان هذا داعياً إلى انقلاب الأهالي على الحكام وتعديهم عليهم وإخراجهم من بلادهم . (١)

وكان سوء حال مصر وسائر الممالك الرومانيَّة الشرقيَّة سبباً في تجرؤ الفرس على تلك الممالك وانتزاعها من قبضة الرومان فهل تغيَّر حال مصر تحت الحكم الفارسي الشرقي عنه تحت الحكم الرومان الغربي ؟

لقد بقيت مصر في يد الفرس نحو عشر سنوات ساموا فيها المصريين الخسف والعذاب أشكالاً واستمرُّوا على ذلك إلى أن قام هرقل ملك الروم وقاتلهم وهزمهم واسترجع البلاد من يدهم ، ولكن لم ينل أقباط مصر مع الأسف من هذا التغيير خيراً بخلاف ما كانوا يتوقعونه من أن الحوادث علَّمته والتجارب ربَّته بل كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار فإن هرقل بعد ما خلَّص البلاد من يد الفرس حوَّل نظره إلى تنفيذ الغرض الأصلي الذي كان يسعى وراءه الملوك أسلافه وهو توحيد العقيدة النصرانيَّة وجعلها واحدة في كل المملكة ولما لم يجد منهم إلا الرفض والإباء التجأ في تنفيذ غرضه هذا إلى القوَّة والشدَّة وحد السيف فقتل كثيراً من السوريين والمصريين واستباح دماءهم وسلب أموالهم وعزل البابا بنيامين بطريرك الأقباط وعيَّن بدله ممن على مذهبه ثم طلبه (بنيامين) ليقتله فهرب واختفى من وجهه في دير صغير بالصعيد

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مؤسسة مار مرقس لدراسات التاريخ القبطي ط٢ سنة ٢٠٠٠ ص ٢٩

وبقي مختفياً فيه إلى مجيء العرب واستيلائهم على مصر ، ولمَّا لم يعثر عليه قبض على أخيه المدعو مينا وألقاه في اليم لأنه أصرَّ على عدم الإرشاد إلى محل أخيه وأنكر معرفة محل وجوده .

ومن جرَّاء هذه الاضطهادات والقلاقل والفتن الداخلية المُسَبَّبة عن انقياد ولاة الأمور لأئمة الدين انقياداً أعمى وإذعانهم لمشوراتهم الفاسدة وانصياعهم لتمويهاتهم التي كانوا يتخذونها ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الذاتية وكذلك سوء سياسة وتدبير الملوك باهتمامهم بجعل جميع الرعايا على دين ومذهب واحد واشتغالهم بالأخذ بناصر الرؤساء الذين كانوا على شاكلتهم ومعتقداتهم والانتقام للواحد من الآخر بسفك دماء محازبيه بغير تبصُّر في عواقب الأمور وما ينجم عن ذلك من الخراب والدمار أصبحت المملكة الرومانيَّة الشرقيَّة في انحطاط زائد وأصيبت بداء عضال تعذر البرء منه وهذه عاقبة كل مملكة تكثر فيها التعصبات الدينيَّة والاختلافات المذهبيَّة .

وبينما كان الملك هرقل مهتمّاً بتأييد مذهبه واضطهاد مخالفيه في سوريا ومصر متشاغلاً بذلك عن إجراء ما فيه حفظ البلاد وصونها وراحة العباد وتنظيم أحوال مملكته ولَمِّ شعثها ظهرت الدولة العربيَّة الإسلاميَّة في شبه جزيرة العرب في أوائل الجيل السابع للميلاد وكان ظهورها قاضياً على مملكة الروم الشرقيَّة بالويل والخراب لأن الاختلال كان ضارباً أطنابه في كل أنحائها . "(١)

(١) يعقوب نخلة روفيله " تاريخ الأمة القبطية " مرجع سابق ص ٣٤- ٣٧ بتصرف .

كانت هذه هي حال مصر قبل الفتح العربي ، فكيف تمَّ الفتح العربي الإسلامي لمصر ؟ وكيف ساهم المصريون في بناء الحضارة المصريَّة الإسلاميَّة ؟ وما أهم سمات تلك الحضارة وأهم أعلامها ؟

هذا ما نتعرَّف عليه في الفصل التالي .

***